يوميات مغتربة
IRELAND
ITALIA

يوميات مغتربة
الكاتبة: نهلة زكي
تدقيق لغوي وإخراج فني: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 14585 / 2019
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 045 - 4

دار الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**
E- mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات
المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم
01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

يوميات مغتربة

الكاتبة

نهلة زكي

دار الإيمان للنشر والتوزيع

Passport.

إهداء

إلى أمي.. حين بسطت جناحيها على الكون فأمطرت بردًا وسلامًا..

إلى أبي.. حين نثر نبضات قلبه دروب محبةٍ وأمان..

إلى من شقوا في فلوات غربتنا نيلا..

فأزهر في قلوبنا الياسمين..

(حيّاكم الله)

ارتطمت عجلات الطائرة بأرض المطار معلنة الوصول إلى عالمي الجديد.. تلك الدولة الصغيرة التي تفترش بهدوء وسلام ساحل الخليج في أقصى شرق الوطن العربي.

مررت بنظرة سريعة على الوجوه المرافقة في محاولة للاستئناس والهرب من مشاعر الوحدة، لكن النظرة ارتدت إلى قلبي حاملة المزيد من المشاعر القلقة المتوترة التي أعلنت بأنني منذ هذه اللحظة أحمل لقب (مغتربة).. ذلك اللقب الذي يخفي بين طياته عددًا من المشاعر المتضادة المتناقضة بين القوة والصلابة حينا، والضعف والحزن والحنين أحيانا.

الوجوه المحيطة تحمل العديد من المشاعر المختلطة بين الدهشة والخوف الممتزج بالقلق والانبهار.

تشبثت بزميلتي التي شاركتني مقعد الطائرة والتي أنست برفقتها لأننا التقينا مسبقًا أثناء إنهاء إجراءات السفر في القاهرة.. كانت ضئيلة الجسد، هادئة الصوت، لها وجه شاحب جامد الملامح، عبرت لي أثناء الرحلة عن حزنها لتركها طفلا رضيعًا لم يكمل عامه الأول.. حاولت طمأنتها ضاحكة مرتدية ثوب الأم القوية الواثقة رغبة في التغلب بهذا القناع على ما يمور بداخلي من مشاعر قد تدفعني إلى الانفجار باكية في تلك اللحظة.

استمرت محاولتي في اصطناع البهجة واللامبالاة وبث روح المرح بين زميلاتي من خلال المواقف الصغيرة ومحاولة يائسة في إقناع الزميلة الريفية البسيطة بعدم خطورة استخدام السلم الكهربائي، ثم الإمساك بيدها وجذبها كطفلة تعبر الشارع برفقة والدتها.

استقبلنا مندوبو الوزارة ببشاشة وترحاب، وقاموا بمساعدتنا في سرعة إنهاء إجراءات الوصول ثم قاموا باصطحابنا إلى خارج المطار.

بمجرد الخروج من بوابة المطار الزجاجية شعرت بلفحة قوية من الهواء الساخن جعلتني أتراجع بوجهي وأتلفت بحثًا عن مصدر هذه

الحرارة معتقدة أنها صادرة من أحد المحركات الساخنة.. تقدمت خطوات أخرى.. استمر التيار الساخن.. هنا فقط أدركت أن هذا التيار الساخن هو الهواء الجوي العادي لهذا البلد وقفزت إلى رأسي العبارة التي قرأتها منذ لحظات:

"حياكم الله في الكويت".

❋ ❋ ❋

أين.. أين.. أين؟!

في الحافلة التي أقلتنا من المطار إلى دار الضيافة كنت مشغولة بمراقبة الطريق من النافذة، أول ما لفت نظري هو صفوف الأشجار الكثيفة على جانبي الطريق.. تساءلت مندهشة: كيف لدولة صحراوية جافة تشتري التربة الزراعية من الخارج أن تكون شوارعها بهذا الاخضرار الذي نفتقده نحن في بلاد النيل؟!

كانت الشوارع خالية تقريبا إلا من السيارات المسرعة من حولنا.. استمرت التساؤلات: ما هذا الهدوء.. هل نسير في مدينة أشباح؟!

أين البشر؟ أين نداءات الباعة الجائلين؟!

أين الدراجات والعربات الصغيرة؟

أين آلات التنبيه؟! أين المعروضات التي تحتل أرصفة الشوارع؟!

أين الغسيل في (البلكونات)؟!

يا خبر!! أين (البلكونات) أصلا؟!!

لا أرى في المباني إلا النوافذ المغلقة بإحكام بالستائر الآلية الصلبة المعروفة باسم (الشتر).

عرفت فيما بعد أن دولة الكويت حينها تكاد تخلو من البشر في ذلك الوقت من العام؛ حيث يعود الوافدون إلى بلادهم لقضاء العطلة السنوية، بينما يسافر الكثير من الكويتيين هربًا من لهيب أغسطس الحارق إلى نسائم أوروبا الباردة.

استمرت عشرات الـ (أين) تتسابق في رأسي حتى وصلنا إلى دار الضيافة.

على امتداد القاعة الواسعة كان في انتظارنا صفوف طويلة من موائد الطعام التي أظهرت لنا كرم أهل الكويت في استقبال ضيوفهم.. (بوفيه) مفتوح ضخم عامر بجميع أنواع الأطعمة والسلطات والحلويات و المشروبات الباردة..

كنا مجموعة كبيرة مكونة من 20 معلمة مصرية فقط مع 120 معلمة سورية.. أخبرنا مستقبلونا بأن مجموعة السوريات ستتناول العشاء بينما تنتهي المصريات من إجراءات التعاقد، ثم يتم تبادل المواقع.

في الصالة الإدارية كان كل شيء مرتبًا وجاهزًا لتوفير الراحة لنا: موظفو الوزارة لاستيفاء البيانات، والتوزيع على المناطق التعليمية مع منح الهويات المؤقتة وسلفة مالية سريعة، مندوبو البنوك لفتح حسابات الرواتب، مندوبو شركات الاتصالات لبيع خطوط الهواتف الكويتية للراغبات.. الخ.

استغرقت الإجراءات حوالي ساعتين تقريبًا كان الإجهاد حينها قد تملك منا تماما.. ثم كان الخبر الجيد.. أن أوراقنا الآن جاهزة وأننا نستطيع العودة للقاعة الكبيرة للراحة وتناول العشاء.. تنفسنا الصعداء ثم انتقلنا لقاعة الطعام.. وهنا كان الخبر السيئ.. الأواني خالية تماما بعد أن نفد الطعام عن آخره على يد المجموعة السابقة التي يفوق عددها خمسة أضعاف عددنا.. ولذا علينا مغادرة دار الضيافة بلا أي ضيافة!!

لا بأس.. "بألف هنا ومطرح ما يسري يمري".

❋ ❋ ❋

صيف بارد جدا!

أمام دار الضيافة كانت السيارات جاهزة لنقلنا إلى سكن المعلمات.. طلب منا المشرفون تقسيم أنفسنا إلى مجموعات تتكون كل مجموعة من أربع معلمات، تمسكت بي زميلتي القلقة (رفيقة الطائرة) فطمأنتها بأنني معها.. وبسرعة انضمت إلينا اثنتان من الزميلات وهمت كل منا بحمل حقيبتها لوضعها في السيارة، وهنا أسرع إلينا العمال الأسيويون لحمل الحقائب عنا.

كان هذا اللون من البشر جديدًا علينا.. تلك الفئة البائسة التي تقيم في أكثر المجتمعات رفاهية لكنها تعيش أقسى حياة.. رواتب غاية في الضآلة.. مساكن ضيقة مزدحمة سيئة التهوية.. معاملة قاسية من بعض أرباب العمل.. ومع ذلك تلمس شعورهم بالرضا وهم يسرعون إليك لتنظيف سيارتك أو حمل مشترياتك شاكرين للقليل الذي يحصلون عليه مقابل ذلك.

في سكن المعلمات النظيف المكتمل التأثيث كانت طرقات الصداع تزداد حدة على رأسي؛ فاقترحتُ على زميلاتي أن أعد لهن الشاي بينما يقمن باستبدال ملابسهن.. وفي المطبخ واجهتني المشكلة الأولى: صعوبة تركيب اسطوانة الغاز لاختلاف شكل المنظم وفوهة الاسطوانة عما نعرفه في مصر.. حاولت فهم الوضع لكنني آثرت تأجيل الأمر لحين الاستعانة بأهل الخبرة نظرا لخطورة العبث بالغاز.. فلجأت لغلاية المياه الكهربائية فواجهت المشكلة الثانية: (فيشة) الكهربا ذات إصبعين ومفتاح الكهرباء به ثلاثة ثقوب.. (يادي الحيرة.. بلاها شاي.. ياللا ننام وبكرة يحلها ربنا).

حاولت النوم.. جو الشقة شديد البرودة.. تيار الهواء البارد المنبعث من فتحات المكيف المركزي يصعب احتماله.. خرجت إلى الصالة للبحث عن أي مفتاح أستطيع به تعديل الوضع لكن إحدى الزميلات تطوعت مشكورة بالفتوى:

(المكيف دة مركزي، يعني العمارة كلها بتتظبط على درجة حرارة واحدة وما ينفعش تتغير).

نعم!! لم تقنعني الإجابة ونظرت إلى عجلة دوارة مرقمة على الحائط وحاولت تحريكها؛ فمنعتني بشدة زميلتي (أم العريف) وحذرتني من أن هذا العبث سوف يؤدي إلى إتلاف جهاز التكييف بكامل المبنى فنموت من شدة الحر!!

استسلمت عن غير اقتناع وحاولت النوم.. لم يفلح الغطاء ذو الألياف الصناعية ولا الرداء الشتوي الذي ارتديته في حمايتي من هذا الصقيع.. فتكومت حول نفسي مسترجعة إحدى الحكايات المشابهة التي مر بها الكاتب أنيس منصور في رحلته حول العالم في 200 يوم.

وفي الصباح فتحت النافذة لتقليل برودة الجو فدفعني لإغلاقها لسان اللهب المفاجئ.. وجلست في الصالة أرتجف وقد قررت استحالة الحياة في هذا البلد..

وفي هذه اللحظة دخلت مشرفة السكن لاستكمال بيانات الساكنات.. فصرخت بمجرد الدخول: ما هذا البرد؟!! كيف تجلسن في

هذا الجو؟! وبلا انتظار إجابة منا توجهت على الفور للعجلة الدوارة على الحائط وحركتها متعجبة: المكيف مظبوط على درجة 10 مئوية.. لماذا لم تعدلن درجة الحرارة؟؟!!

نظرتُ غاضبة لـ (أم العريف) التي اتجهت بنظرها إلى الأرض في خجل..

(يا محاسن الصدف)

حين كنت بصدد التعاقد للعمل بدولة الكويت سألني المشرف على الاختبار بالقاهرة إن كنت أريد أداء الاختبار للعمل بالمرحلة الابتدائية أم المرحلة الثانوية فأجبته بشكل قاطع أنني أريد اختبار المرحلة الثانوية.

حاول والدي إقناعي باختيار المرحلة الابتدائية لسهولة الاختبار بالتأكيد فرفضت مبررة موقفي بأنني أعمل في المرحلة الثانوية منذ عدة سنوات، وأدرك تفاصيلها وخباياها، وأصبحت خبرتي بتدريس النحو والبلاغة والأدب جيدة، بعكس المرحلة الابتدائية التي لم أعمل بها مطلقا ولم أدرس مهاراتها، ولا طرق التدريس فيها، ولا خبرة لي نهائيًا بتدريس الحروف الهجائية ومبادئ القراءة و الكتابة.

وحين قابلت المسؤولة عن المقابلة الشخصية سألتني مرة أخرى قبل توقيع العقد إن كنت أفضل التعاقد للمرحلة الثانوية أم الابتدائية؛ فأكدت لها رغبتي الشديدة في العمل بالمرحلة الثانوية.

وبعد السفر بفترة طُلب منا التوجه للمنطقة التعليمية لاستلام خطابات التوزيع على المدارس..

وهناك كانت المفاجأة!!

جميع المعلمات المتعاقدات هذا العام سيعملن بالمرحلة الابتدائية بسبب تأنيث العمل في هذه المرحلة وقصر العمل فيها على المعلمات دون المعلمين لأول مرة في تاريخ الكويت..

يا محاسن الصدف!!

حاولت التفاهم مع المسؤولين وتوضيح فكرة أنني لم يسبق لي العمل في هذه المرحلة ولن أنجح فيها لكن دون جدوى..

أمسكت هاتفي وأخبرت والدي باكية بما حدث، وبأنني بالتأكيد سوف أصبح أفشل معلمات هذه المرحلة، لكن صوته الدافئ نزل كالعادة على قلبي بردا وسلامًا..

كان لكلماته المشجعة المتفائلة المؤكدة على ثقته في قدرتي على التأقلم والنجاح في أي مرحلة الدور الأكبر في تقبلي، أو على الأقل استسلامي للأمر الواقع.

وعلى باب غرفة التنسيق وقفت صامتة أراقب الزميلات المتحلقات حول المكتب وهن يحاولن مع الموجهة الفوز بمدارس البنات والهرب من شقاوة البنين، مع محاولات أخرى لاقتناص المدارس القريبة من سكن المعلمات لتجنب مشاكل التوصيل وازدحام الطرق..

لم أقترب منهن ولم أشترك في هذه المعركة نهائيًا حتى ارتفع صوت الموجهة معلنًا بشكل حاسم أن جميع المعلمات سيعملن بمدارس البنين نظرا لعدم وجود أماكن شاغرة في مدارس البنات، كما أنه لا أمل أيضا في أي مدارس قريبة من سكن المعلمات لعدم وجود أي نقص في منطقة (السالمية) التي يقع فيها السكن.. وبذلك أنهت الصراع؛ فقامت كل معلمة باستلام خطاب توزيعها بلا نقاش..

وعندما حل دوري سألتني الموجهة عن المنطقة التي أفضلها، وعن سر عدم اشتراكي في المعركة؛ فأجبتها بأن الأمر يتساوى عندي طالما أن مدارس البنات والمدارس القريبة من السكن تعتبر حلمًا بعيد المنال..

ابتسمت الموجهة وقامت بكتابة اسم المدرسة وناولتني إياه.. فأخذته صامتة وقرأته أثناء انصرافي لمجرد العلم..

(عمرة)!!

لم أنتبه لباقي الاسم لكنني استغربت.. كيف تحمل مدرسة بنين اسم (عمرة) لعلمي أن مدارس البنات في الكويت لابد أن تحمل أسماء مؤنثة والعكس صحيح.. فسرت الأمر لنفسي أنه ربما كان اسم (عمرة) مؤنثًا مجازيًا مثل حمزة أو معاوية أو أمية.. و لم أعر الأمر اهتمامًا..

ركبت مع زميلاتي حافلة الوزارة للعودة إلى سكن المعلمات، وعند النزول من الحافلة وقبل الدخول من باب السكن وقع نظري على لافتة المدرسة المجاورة تماما للسكن والتي تطل على فنائها نافذة غرفتي..

وجاءتني الحروف التي قرأتها في الورقة منذ قليل لكنها هذه المرة جاءتني براقة راقصة..

مدرسة عمرة بنت مسعود الابتدائية.. للبناااااااات.

(إن ياو ياو وإن ما ياو ما ياو)

الأيام الأولى في الدوام المدرسي.. شعور ثقيل بالغربة بين ما يقترب من مائة معلمة وموظفة في المدرسة يتبادلن التحيات والضحكات والتهاني الساخرة بالعام الدراسي.. الكلمات الكويتية تتداخل في أذني غريبة الوقع.. تقطعها الجمل المألوفة من الزميلات المصريات.. كانت علاقتي باللهجة الخليجية حينها لا تزيد كثيرًا عن علاقتي باللغة الفرنسية!! لذا كنت أعتمد في فهمي لبعض المفردات الغريبة على استنتاج المعنى.. فمثلا عندما تقول إحداهن:

"الجو وايد حر" فإنها تعني بالطبع أن الجو شديد الحرارة.. وعندما أعتذر شاكرة لإحداهن عن مشاركتها الفطور فتسألني مستفسرة: "تريجتي؟"

(بالفكاكة) كدة أفهم أن "تريقتي" يعني "فطرتي".

لكن هذه الطريقة لم تكن دائما ناجحة.. فعندما طلبت مني زميلتي أن "أبطل" جهاز المكيف القريب مني لم أفهم ما تقصد فقد كان متوقفا

بالفعل.. بعدها وضحت لي زميلتي أن "بطلي" في اللهجة الكويتية بمعنى الفتح وليس الإيقاف وذلك بعكس معناها في اللهجة المصرية.

أما عندما أسرعت لي تلميذاتي مستنجدات: "صكت هوشة" فلم أستطع إدراك إن كان ما سمعته كلمة واحدة أم كلمتين.. وإن كان كلمتين فمن أين يمكنني فصلهما!!

ولم تمهلني الصغيرات لمحاولة الفهم بل جذبتني إحداهن من يدي حتى وصلت بي إلى موقع "الهوشة" فوجدت معركة حامية بين تلميذتين، وبعد فض الاشتباك بينهما استفسرت من إحداهن عن سبب المعركة فأشارت الصغيرة إلى زميلتها بالاتهام:

- "بايجة مطارتي".

تلبستني فورًا شخصية الفنانة (إنعام سالوسة) في الفيلم الشهير عندما كانت تجيب عن أي استفسار لا تجد له إجابة بجملة واحدة: "إن شاء الله وألف ألف مبروك".

وبقليل من الجهد فهمت أنها تتهم زميلتها بالاستيلاء على (زمزمية) المياه الخاصة بها!!

لكن سرعان ما هربت مني الشخصية (السالوسية) عندما قالت لي إحدى التلميذات:

- "أبلة.. فتشي الدريشة".

كانت الشخصية التي تلبستني هنا هي شخصية الراحل محمود عبد العزيز في فيلم (العار) عندما طلبوا منه أن (يفيش الهوامش)!

وبمساعدة لغة الإشارة أيضا فهمت أن المطلوب مني فقط هو فتح النافذة!

ومن أهم المواقف التي فشلت فيها كل طرق الفكاكة والإشارة كان التناحة التامة التي أصابتني عندما نادتني المديرة في فناء المدرسة وسألتني:

- "طرشتي بنية تيبلج صمونة؟"

الكلمة الوحيدة التي فهمتها من هذه العبارة هي كلمة "بنية"، لكن (إيه اللي حصل للبنية.. ما اعرفش!!).

أعادت المديرة السؤال متعجبة من صمتي: نهلة.. (اشفيج متوهقة؟!!)

(يادي النيلة السودا.. هو أنا فهمت الأولانية عشان افهم التانية!!)

هنا أنقذتني إحدى الزميلات المصريات بالترجمة:

- (انت بعتي بنت تجيب لك سندوتش؟)

فأجبتها بالنفي؛ فانصرفت المديرة ولسان حالها يلعن الغباء والأغبياء!!

كما لم أستوعب سبب تعجب إحدى تلميذاتي عندما طلبت منها أن تسرع في إنجاز ما طلبته منها قائلة: (انجزي)، حيث سألتني: (من وين أنجز؟) عرفت بعد ذلك أن كلمة (ينجز) في اللهجة الكويتية معناها (يقفز)!!

كان أصعب ما يواجهني هو الكلمات التي لا أجد لها أصلا أو شبيها في اللغة العربية نهائيا مثل: "يطنز - غشمرة - يسولف - لوية - يبوق - يمون".. الخ.

وقد استغرق فهمي لهذه الكلمات وغيرها عدة سنوات حتى استطعت التفرقة بين الكلمات التي كان في اعتقادي ان لها نفس المعنى

مثل (مسكر) و(مقفول).. فكلاهما بمعنى (مغلق) لكن (مقفول) تعني أنه مغلق بالمفتاح أو القفل و ليس مجرد الإغلاق.

والآن.. بعد مرور كل هذه السنوات على وجودي في الخليج أستطيع بكل فخر أن أعلن أن تمكني من اللهجة الكويتية قد وصل إلى المرحلة التي أستطيع فيها فهم العبارة الكويتية:

"إن ياو ياو وإن ما ياو ما ياو".

و التي تعني بكل بساطة:

"إن أتوا فأهلا بهم، وإن لم يأتوا فلا بأس"!!!!

❋ ❋ ❋

"بلاها خس.. خد جرجير!"

الزيارة الأولى للسوبر ماركت الكبير المسمى هنا (الجمعية التعاونية).. أول ما يلفت الانتباه التنوع الكبير في المنتجات.. عشرات الأنواع والألوان والأحجام للمنتج الواحد..

سأشتري تفاحًا.. (طيب فرنسي ولا إيراني.. أمريكي ولا يوناني.. تشيكي ولا لبناني؟!!)

أحتاج أرزا.. (هندي ولا سيلاني.. مصري ولا أفغاني؟!!!)

(عاوزة شاي.. بالزعفران ولا بالهيل.. كرك ولا سادة؟)

(سادة؟! طيب أكياس ولا سايب؟)

(سايب!! طيب خشن ولا ناعم؟ عبوة كبيرة ولا صغيرة؟ هندي ولا باكستاني.. انجليزي ولا سيلاني؟)

(إيه اللي هناك دة!! شاي العروسة!! حبيب قلبي.. انت كنت فين من زمان؟!!)

(نجيب السكر بقى.. أظن السكر في كل الدنيا هو سكر.. لاااا سكر مين؟ لازم تحددي.. مصري ولا ألماني.. سايب ولا أكياس.. قوالب ولا باكيتات.. أبيض ولا بني. دايت ولا عادي.. إيه يا ربي الحيرة دي. أنا هناك بروح لعم سليمان البقال أقول له إديني سكر وشاي ورز وزيت واخدهم وامشي..)

(طيب نجيب العيش.. من فضلك فين العيش؟) أشار العامل الهندي إلى أحد الأركان..(لأ.. ما انا كنت هناك من شوية.. دة الرز.. أنا باسأل عن العيش..)

نظر لي العامل باستغراب فأنقذني أحد المارة المصريين: (عيش هنا يعني رز.. قولي خبز..).

يا سلام!!!

(ماشي.. فين الخبز؟)

(لاااا مش بالسهولة دي.. صاج ولا فرنسي.. تركي ولا إيراني. مصري ولا لبناني؟!!)

(يا ربي.. حتى العيش خد جنسية أجنبية واحنا قاعدين!!)

أمر على بعض المشاهد غير المفهومة. بامية طوييييلة جدا ومدببة.. خيار له حراشف صلبة.. فاصوليا يقترب طولها من ربع متر.. نصف أو ربع بطيخة ملفوف بالنايلون الشفاف.. شخص يشتري موزتين ويتجه لدفع الحساب..

نعم!! موزتين!!

(دة عندنا في البلد لو طلبت من البياع كيلو موز.. هيبص لي باحتقار والناس هتاكل وشي..).

(ما علينا..) أصل للمحطة الأخيرة في رحلتي.. البيض الذي أجعله دائما آخر المشتريات.. أمسك (كرتونة) البيض من المكان المخصص لحملها.. فجأة تنفصل اليد فيتحول الممر النظيف الذي أقف

فيه في لحظة لطبق كبير من العجة.. نظرت إلى موظف الجمعية وهو يأتي مسرعًا وقد تسمرت في مكاني كطفل كسر بالكرة نافذة الجيران.. حاولت استعادة هدوئي بتذكير نفسي بأن كل ما في الأمر هو دفع ثمن البيض المكسور.. نادى الموظف على العامل لتنظيف المكان بينما مد يده لي بكرتونة أخرى معتذرًا عن عيب التغليف الذي تسبب في سقوط البيض..

(إيه دة؟! خلاص كدة!!)

شكرت الموظف واتجهت مباشرة لدفع الحساب.. ذكر لي (الكاشير) المبلغ المطلوب.. لم أكن أجيد التعامل بالعملة الكويتية.. ولا أفرق بين أشكالها.. أخرجت من حقيبتي حفنة من النقود وقدمتها إليه.. أخذ ورقة واحدة.. فأعدت باقي النقود إلى الحقيبة.. سألته: (فيه باقي؟!)

أجاب: عشرون فلسا.

لم يمثل المبلغ المذكور أي مفهوم في عقلي.. (فيه باقي.. عشرين أي حاجة وخلاص..).

فوقفت أنتظر.. لم أفهم سبب نظرة التعجب التي رمقتني بها السيدة التي تنتظر دورها خلفي إلا بعد أن مد المحاسب لي يده بالباقي. قطعة معدنية صغيرة في حجم المليم..

(هي دي العشرين اللي انا واقفة مستنياها!!)

عقد الخجل لساني لدرجة أنني لم أحاول أن أشرح له سبب انتظاري واهتمامي بالعشرين فلسا.

بعد هذا الموقف بدأت أركز وأفهم وأحدد مدلول كل عملة حتى لا أتعرض لمزيد من المواقف المحرجة.. لكن هذا التركيز كان له سلبيات أخرى.. وهي المقارنة اللاإرادية بين ثمن السلعة في الكويت وثمنها في مصر.. والفارق الكبير في السعر، خاصة في الخضروات والفواكه قد يدفعك أحيانا للتخلي عن شراء السلعة..

(كرنبة بدينار ونص!! ليه يعني؟ مالحقش يوحشنا المحشي يعني..)

(الخساية بنص دينار!!) الآلة الحاسبة في رأسي تعمل تلقائيا.. (النص دينار دة في مصر ممكن أشتري بيه نص غيط الخس.. صحيح هو هنا نظيف ومتغلف وابن ناس بس مش للدرجة دي.. بلاها خس.. ناخد جرجير..)

لكنني في جولات التسوق التالية قررت التوقف نهائيًا عن هذه الترجمة التي إذا استمرت ربما تدفعني لتأجيل تناول نصف أنواع الأطعمة لحين العودة إلى مصر..

❋ ❋ ❋

القاضي الضاحك!

في الغرفة المجاورة في سكن المعلمات تقيم اثنتان من الزميلات من محافظتين شماليتين هما.. لا.. لن اذكر اسم المحافظتين وسأتركهما لذكاء الأصدقاء بعد قراءة الحكاية..

المعلمتان تتشابهان في الصفات بشكل غريب.. العمر نفسه.. عدد ونوع أطفالهما.. طريقة ارتداء الملابس.. حتى اسميهما كانا متشابهين في تصادف مثير للدهشة.

كانت كل منهما لطيفة مهذبة على جانب كبير من الخلق والدين.. ورغم ذلك لم يكن يمر يوم واحد دون أن تنشب بينهما مشاجرة أو خلاف لأسباب كانت عصية على الفهم بالنسبة لي..

ولما كنت على علاقة جيدة بكل منهما فقد كانتا تستعينان بي للحكم بينهما، وتحديد المخطئ لفض النزاع..

وللأسف كنت في معظم الأحيان قاضيًا فاشلا؛ لأنني بمجرد الاستماع إلى المشكلة أستغرق في نوبة ضحك طويلة تجعلهما ينظران إليّ

في غضب واندهاش من سبب الضحك.. وكثيرا ما كنت أعتذر منهما لعجزي عن تحديد المخطئ في معضلاتهما العجيبة!!

وفي إحدى الليالي نادتني نشوى ونجوى للحكم بينهما، كالعادة.. اندهشت كثيرًا.. فقد عادتا للتو من الخارج بعد قضاء ساعاتٍ معًا وقد كانتا قبل الخروج (سمنا على عسل!)

عند الاستماع إليهما عرفت أن أحد أقارب نشوى قد اصطحبهما لقضاء مصلحة ما بناء على طلبهما نظرا لعدم وجود سيارة.. وفي طريق العودة اشترى لهما مشكورا وجبة عائلية كبيرة من أحد المطاعم الشهيرة تعبيرًا عن ترحيبه بهما في الكويت..

وقد كانت تلك الوجبة سبب المشكلة.. في البداية فهمت أن نجوى ترفض مشاركة نشوى في الوجبة باعتبارها تخصها وحدها لأنها جاءت من طرف قريبها.. فعاتبتُ نجوى لحساسيتها الشديدة وطلبت منهما تناول العشاء سويًا بلا حساسيات.. فقامت نجوى بتوضيح الأمر وأن العكس هو الصحيح.. فنشوى مصممة على الانفراد بالوجبة والاحتفاظ ببقيتها لليوم التالي على اعتبار أن صاحب الدعوة هو

قريبها.. بينما تصر نجوى على حقها في العشاء مستشهدةً بقول صاحب الدعوة: هذا العشاء (لكما)!!!

وبالطبع انتابتني حالة من الذهول أعقبتها نوبة من الضحك.. جعلتهما يعبران عن ندمهما على الاستعانة بي..

بعدها بعدة أيام عدت من الخارج فوجدت نشوى ونجوى في إحدى حالات الاشتباك المعتاد.. وبالسؤال عن السبب فهمت أن نشوى قد استعارت بالأمس من نجوى كيسا صغيرا من مسحوق الغسيل.. وهي الآن ترد لها الدين بعد أن اشترت مسحوقها..

وعندما حاولت أن أشرح لنشوى أن الأمر بسيط وأنها يجب ألا تصر على إعادة الكيس وأن تعتبره هدية بسيطة من زميلتها اتضح أنني كالمعتاد.. يرفض عقلي استقبال القصة بشكلها الصحيح فيعيد صياغتها بما يتناسب مع قناعاتي.. فالمشكلة الحقيقية أن كيس المسحوق الذي تحاول نشوى إعادته من نوع أرخص في الثمن قليلا عن النوع المستعار.. وأن نجوى مصممة على أن يكون الكيس المسترد من نفس نوع الكيس المستعار!!!!

وكالمعتاد.. بعد ثوان من الذهول انفجرت في نوبة ضحك جعلتهما يقسمان أن هذه هي المرة الأخيرة التي يستعينان بي فيها للحكم بينهما..

وبالفعل توقفت الجارتان عن طلب تدخلي في مشكلاتهما لكنهما لم يستطيعا منعي من الضحك، حين كنت أشاهد إحداهما تضع أرقامًا بالقلم الرصاص على البيض داخل الثلاجة.. أو تقسيم كيس الخبز باستخدام كسور الرغيف!!

وبمرور الوقت اعتدت هذه التصرفات حتى أنها لم تعد مثيرة للضحك بالنسبة لي..

أما المشهد الذي أعاد لي نوبات الضحك الهستيري فكان متابعتي للرفيقتين أثناء تقسيم بعض المشتريات المشتركة حين وجدت نجوى تفك حزمة الجرجير وتعد أعوادها عودًا عودًا لتتقاسمها الشريكتان بالعدل الذي لا يقبل النزاع!!!!

❋ ❋ ❋

ليليان

في آخر مقعد في الفصل كانت تجلس كملاك صغير.. مدهشة الجمال.. لها بشرة صافية وعيون خضراء وشعر بلون الذهب..

لاحظت عزوفها عن المشاركة في أي أنشطة في الفصل وعدم اندماجها مع زميلاتها حتى في أوقات الراحة..

وعندما وجهت لها سؤالا في إحدى الحصص وقفت صامتة شاردة.. ولما أعدت السؤال بلهجة حاسمة احمر وجهها واغرورقت عيناها بالدموع.. اقتربت منها وسألتها عن اسمها؛ فأجابتني بصوت مختنق: ليليان.

أمسكت دفاترها أقلب فيها.. خطها جميل مرتب لكن إجاباتها ناقصة والدروس غير مكتملة!

كان الفصل جديدًا بالنسبة لي بعد تبديل المعلمات لظروف العمل، واستغربت أن يكون هذا حال التلميذة بعد مضي فترة لا بأس بها من العام الدراسي!!

حاولت الاستفسار عن سبب ذلك من ليليان فأجابتني بلهجة شامية مرتبكة ثم انفجرت باكية، فأوقفت الحوار وحاولت تهدئتها وتأجيل الأمر لوقت آخر..

وكان أول ما فعلته عند خروجي من الفصل هو الاستفسار من معلمة الفصل السابقة عن الفتاة؛ فعرفت أنها سورية مسيحية وأن هذا هو عامها الأول في الكويت..

وبقليل من الملاحظة اتضح لي سر ابتعاد التلميذات عنها.. فهي جديدة على المدرسة، ويتم إخراجها من الفصل أثناء حصص التربية الإسلامية والقرآن الكريم، وذلك ما جعل التلميذات يتهامسن فيما بينهن بأنها كافرة ولا يقبلن على اللعب معها مما زاد شعورها بالوحدة والغربة.

حاولت التقرب من الصغيرة.. كانت متخوفة في البداية، وباستخدام القليل من الخبرة التربوية والأمومة الفطرية استطعت كسر ذلك الخوف.. فباحت لي ليليان برفضها لوجودها في الكويت، وبأنها تجد صعوبة كبيرة في التأقلم، خاصة مع تسلل همسات الصغيرات عن

اختلافها في الديانة وكونها المسيحية الوحيدة في المدرسة.. وأنها تحلم بالعودة إلى (ضيعتها) الجميلة ورفيقاتها الحبيبات.

في ذلك الوقت كنت أكثر البشر استيعابًا لمشاعر هذه الصغيرة.. فرغم الفارق الكبير في السن والنضج، ورغم عدم اختلافي في الديانة، ورغم قدومي إلى الكويت برغبتي التامة إلا أنني كنت أعاني شعورا مؤلما بالغربة.. فياله من شعور قاس، ذلك الذي يدمي هذا القلب الصغير الذي يعجز عن تفهم أسباب انتزاعه من عالمه الهادئ في المروج الخضراء والقذف به إلى هذا العالم الغريب الذي لا يكاد يفقه له قولا !

بعد وقت قليل كانت الفتاة قد التصقت بي تماما كما يتعلق عصفور غريق بغصن في نهر متلاطم..

أحببت الفتاة كثيرا.. وكنت أشعر بسعادة كبيرة حين أرى ابتسامتها المشرقة لحظة دخولي إلى الفصل.. لم أدرك على وجه التحديد سر تمكن تلك الفتاة من قلبي بهذا الشكل..

هل رأيت فيها انعكاسا لغربتي؟!

أم أشفقت على هذا المخلوق البريء من مشاعر مدمرة تفوق احتماله!!

وربما كان رد فعل لتعلقها الشديد بي لدرجة أنها بمجرد سماعها لصوت الجرس تسرع إلى غرفة المعلمات لتجلس بجواري.. حتى في نوبات الإشراف.. كانت تقف معي وتحكي لي عن حياتها في قريتها في سوريا وعن جدتها العجوز وأسماء صديقاتها اللاتي تشتاق إليهن.. كانت ترفض محاولاتي لإبعادها عن حرارة الجو أو دفعها للعب مع زميلاتها وكنت أسعد منها بهذه الصداقة.

وبعد فترة قصيرة.. تغيبت ليليان عن المدرسة لثلاثة أيام.. فافتقدتها بشدة ولم أتمكن من التواصل مع أسرتها للسؤال عنها.. وفي اليوم الرابع فوجئت بها تقف على باب غرفة المعلمات وتشير لي من بعيد لأخرج.. فأسرعت إليها.. وسألتها عن سبب غيابها وعدم ارتدائها لملابس المدرسة فأخبرتني أن والدها بعد حيرة كبيرة قد قرر البقاء وحده في الكويت وإعادتها مع أمها وإخوتها إلى سوريا نظرًا لعدم تأقلمهم

جميعا مع الحياة في الكويت.. وأن غدًا موعد سفرها لذا أصرت على المجيء إلى المدرسة اليوم فقط لتودعني..

وما إن انتهت من كلماتها القليلة حتى احمر وجهها الجميل واندفعت إلى حضني باكية بحرقة..

وبدموعها الصادقة.. وحروفها البسيطة التي عبرت بها عن أنني كنت أجمل ما في الكويت وأنها ستظل لآخر عمرها تحبني ولا تنساني حفرت هذه الصغيرة ملامحها في قلب أحبها وفزع لفراقها ولن ينساها..

وداعًا ليليان.. وداعًا يا صغيرتي.

سعاد

قدمت معي إلى الكويت على الطائرة نفسها.. سكنت في الشقة المجاورة لي في سكن المعلمات.. ريفية طيبة الملامح من إحدى قرى الفيوم.. نحيفة الجسد.. ترتدي خمارًا إسلاميًا من النوع المتعارف عليه في ريف مصر.

كانت علاقتنا سطحية لا تتعدى السلام والتحيات العابرة.. خاصة أنها كانت أول من غادر سكن المعلمات حين استقدمت زوجها لزيارة الكويت بمجرد انتهاء إجراءات إقامتنا.

بعدها بأسابيع قليلة استقدمت أنا أيضا زوجي وغادرت مثلها سكن المعلمات.

قضت كل منا ما يقترب من أربعة أشهر خارج السكن ثم عادت هي إلى السكن ولحقتها بعد فترة وجيزة وسكنت معها في الشقة نفسها.

كنت في أسوأ أحوالي النفسية والصحية.. أعاني من متاعب الشهور الأولى من الحمل بالإضافة لاكتئاب شديد بسبب مغادرة زوجي للكويت مصطحبًا معه قطعة من قلبي.. طفلي أحمد.

بدأت في إعداد غرفتي ووضع ملابسي في أماكنها وأنا أفكر بشكل جاد في العودة إلى مصر.

دخلت سعاد الغرفة.. بابتسامتها الحنون سألتني:

- محتاجة مساعدة.

- شكرا يا سعاد.. أنا خلصت خلاص.

- طيب يالا عشان تتغدي.

- ماليش نفس يا سعاد.. متشكرة قوي.

- لا يالا.. مش هاتغدى من غيرك.

- والله يا سعاد ما هاقدر..

التفتت بعيدا عنها لأخفي الدموع التي غلبتني.

- (قومي بس.. ده انا طابخالك وزة زي العسل.. تربية إيدي.. جوزي كان جايبها معاه من مصر).

سحبتني من يدي إلى خارج الغرفة.. استغربت هدوءها.. وسلامها النفسي رغم أنها تعاني تقريبًا الظروف نفسها.. فقد عاد زوجها إلى مصر مصطحبًا طفلها الذي يصغر طفلي سنًا.

قضت الأيام التالية كلها تحاول التخفيف عني وإخراجي من هذه الحالة..

أستيقظ صباح الجمعة لأجدها منهمكة في تنظيف الشقة.. أحاول مساعدتها.. ترفض بإصرار..

- (انت حامل.. إوعي تشيلي حاجة.. روحي ارتاحي).

تتسلل بهدوء أثناء نومي لتأخذ سلة الغسيل من حمامي وتغلق عليها باب المطبخ حتى لا أسمع صوت الغسالة وهي تغسل ملابسي.. ولا تبالي بغضبي منها ولا اعتراضي على ما تفعل.

ترفض مرافقتي إياها إلى السوق لشراء ما يلزمنا من أغراض خوفا من إرهاقي وتعود حاملة كل الأكياس ولا تسمح لي حتى بمساعدتها في ترتيب المشتريات في الثلاجة.

عدت ذات يوم من زيارتي الدورية للطبيب وأنا في غاية الهم.. فقد لاحظ الطبيب كتلة غير طبيعية وقد أشار الفحص المبدئي أنها غالبا ليست حميدة فقام بتحويلي إلى قسم الأورام، حيث طلب الطبيب سرعة سحب عينة من الورم لتحليلها..

تابعت سعاد كل هذا وهي كعادتها.. لا يخرج رد فعلها عن ابتسامة هادئة وبضع كلمات تذوب في الهواء قبل أن تصل إلى مسامعي.

أثناء سحب العينة سألت الطبيب :

- ممكن يكون سرطان.

أجاب بلا تردد:

- غالبا.. شكل الكتلة مع تورم الغدد الليمفاوية مع التاريخ العائلي يرجح الاحتمال السيئ.

- (طيب ولو طلع خبيث.. هنتصرف إزاي وانا حامل؟)

- سنجهضه.

- نجهضه؟!!!!

- (نهلة.. احنا مؤمنين.. وهاقول لك زي ما بيتقال هنا في الكويت "اللي ييجي من الله.. حياه الله").

ذهبت إلى المستشفى في اليوم التالي لاستلام نتيجة التحليل.. الممرضة تبحث عن التقرير بتباطؤ شديد بينما يكاد قلبي يقف رعبًا.

- أسرعي أرجوك.

- (مالك.. وشك أصفر كدة ليه؟ ارتاحي على الكرسي).

- (من فضلك.. شوفي لي التقرير بسرعة.. مش هارتاح إلا لما أشوفه).

- (مش عارفة راح فين تقريرك.. بس على كل حال اطمئني.. انت عاملة العينة امبارح وكل عينات امبارح طلعت حميدة).

انهرت ملقاة على الكرسي حين قالت: مبروك.. بينما كانت تناولني مظروفًا أبيض يحمل في داخله بعض أيام تمتد في عمري وحياةً لطفلي القادم.

لا أعرف كيف حملتني أقدامي إلى المنزل.. جلست على الفراش.. دخلت سعاد عائدة من مدرستها.. سألتني:

- (خير.. إيه الأخبار؟)

- الحمد لله يا سعاد.. الورم حميد.

ضمتني بحنان ثم خرجت من الغرفة وهي تتمتم بحمد الله وتمسح دموعها الواضحة. خرجت خلفها.. وجدتها تفرش سجادة الصلاة.. سألتها :

- (انت هتصلي إيه دلوقتي؟)

- (ركعتين شكرًا لله على استجابته لدعائي لك بالنجاة).

❋ ❋ ❋

على حافة الحياة

انقضى العام الدراسي الأول.. عام دراسي كامل بصيفه الملتهب وشتائه المتقلب ومشكلاته العارضة دون غياب يوم واحد.. عام كامل ينتهي كما بدأ بمنتهى الإخلاص والنشاط والتفاني في العمل بشهادة الجميع دون أي غياب أو استئذان واحد.

يبدأ العام الدراسي الثاني.. أحرص على الانتظام وأداء الواجب قدر المستطاع رغم المتاعب الصحية لحمل غير مستقر..

المتابعة الطبية صباحية والاستئذان من الدوام غاية في الصعوبة.. أطلب من المديرة المساعدة الاستئذان لمراجعة الطبيب.. تجيب:

- (خلصي حصصك واطلعي..)

- كيف يمكنني ذلك؟ جدولي يحتوي أربع حصص دراسية يوميًا..

بصعوبة توافق على تبديل الحصص، وبذلك أكون مضطرة لدخول أربع حصص متتالية، ثم الخروج قبل نهاية الدوام بساعتين فقط يضيع

جزء منهما في انتظار (التاكسي) لأصل إلى المستوصف وقد اكتمل عدد المريضات المسموح باستقباله يوميا فأعود بخفي حنين.

تتكرر المحاولات الفاشلة حتى أتمكن في النهاية من الدخول للطبيب الذي يقرر بعد الفحص تحويل المتابعة للمستشفى لعدم استقرار الحالة.

مواعيد المستشفى أيضا صباحية.. أضطر لأخذ إجازة طبية ليوم واحد لفتح ملف المتابعة.. أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي للإجازة..

- نهلة انتبهي.. الغياب يؤثر على تقرير الكفاءة..

أقرر اللجوء إلى الحل الأخير.. العيادات الخاصة.. فأكون كالمستجير من رمضاء المواعيد بنار الأسعار العالية.. كل خطوة تخطوها بين أقسام العيادة الخاصة تدفع مقابلها مبلغًا وقدره..

أخرج من العيادة وقد استنزفت الجزء المتبقي من راتبي الذي أدفع نصفه إيجارا للشقة الصغيرة التي أسكنها، وربعه كمصروفات شهرية ثابتة مثل فواتير الهاتف والتوصيل للمدرسة وخلافه.

أضطر للعودة للمستشفى الحكومي.. بعد تحذيرات شديدة من الإجهاد والتوصية بالراحة التامة لخطورة الوضع يكتب الطبيب الدواء المطلوب.. أتوجه لصيدلية المستشفى.. يصدمني الصيدلي:

- هذا الدواء يصرف للكويتيات فقط.

- ولكنني موظفة بالحكومة الكويتية ومشمولة بالضمان الصحي، ورغم ذلك سددت قيمة التذكرة الطبية والموجات الصوتية وتحاليل الدم.

- التعليمات واضحة ومحددة.. أي دواء مرتفع الثمن يصرف للكويتيين فقط.

أتوقف عن مراجعة المستشفى وأكتفي بشراء الأدوية مرتفعة الثمن بانتظام.

تمر الأيام ثقيلة متباطئة كثقل خطواتي وأنا أصعد سلم المدرسة ببطن منتفخ وأقدام متورمة وأنفاس لاهثة.

تزداد المشقة والألم اليومي.. أقنع نفسي بأنني مازلت في الشهر السابع ولابد من ادخار رصيد الإجازات المرضية للشهر الأخير.

أقف في طابور الصباح.. أشعر بدوار شديد.. أفكر في الجلوس على أحد المقاعد المحيطة بفناء المدرسة.. تبدأ تحية العلم.. أقرر الانتظار حتى ينتهي عزف السلام الوطني.. وفجأة تظلم الدنيا تماما.. أسترد انتباهي قليلا بفعل رائحة نفاذة ونداءات متداخلة.. تخبرني زميلاتي أنني سقطت فاقدة الوعي..

تهمس لي إحدى الزميلات بأن مديرة المدرسة صرخت في المعلمات بعدم التحرك لإنقاذي قبل انتهاء السلام الوطني!! مما دعا إحدى الزميلات الكويتيات للانفعال عليها متهمة إياها بانعدام الإنسانية..

بعد دقائق دخلت غرفة العيادة المدرسية مديرة المدرسة لتطمئن على صحتي وتطلب مني سرعة الصعود للفصل (عندك الحصتين الأولى والثانية)!!

أصعد السلم بصعوبة.. الألم بالبطن يزداد من أثر الارتطام بالأرض.. أبدأ بالشرح.. تدخل مديرة المدرسة وتجلس في آخر الفصل لتسجيل زيارة إدارية!!

ياله من وقت مناسب للزيارة!!

أبذل كل جهدي.. التقلصات الشديدة تجعلني أتوقف ثواني أثناء قراءة الدرس.. تنتهي الحصة.. تطلب مني المديرة قراءة الملاحظات.. قراءة الدرس متقطعة وغير معبرة.. هناك كيس (شيبس) ملقى على أرضية الفصل.. الصورة المعروضة على السبورة أصغر مما يجب..

تسألني المديرة:

- لماذا لم تشتري صورة أكبر؟

- لأنني أشتري لوحات الدروس والبطاقات والوسائل التعليمية المطلوبة والأقلام وغيرها ولا تسمح إمكاناتي المادية بأكثر من ذلك..

تطلب مني التوقيع بطريقة تعبر عن غضبها من ردي على سؤالها.

لم يعد الألم محتملا.. أطلب من المديرة المساعدة الخروج فورا.. وبنظرة سريعة منها لوجهي تدرك أنه لا مجال لأي مناقشة.

أستقل (التاكسي) وأسرع إلى المستشفى بينما قلبي يكاد يتوقف من الألم.. أطلب من الطبيبة احتجازي بالمستشفى حالا.. ترفض وتطلب مني الذهاب إلى المنزل و تناول بعض المسكنات.. وتؤنبني قائلة: تريدين الولادة في الشهر السابع لتفقدي طفلك كما حدث من قبل؟! أصرخ في وجهها بأنني على وشك الموت أنا والطفل إن لم تسمح لي بالدخول.

بعد لحظات كنت ممدة على سرير متحرك تدفعه ممرضات المستشفى مع التقاط كلمات متناثرة عن احتمال انفجار الرحم وسوء حالة الدم ونداءات بتجهيز الفصيلة للحاجة لنقل الدم..

استسلمت تماما لطاقم الأطباء المحيط بي وأنا أرى حضانة المبتسرين وطبيب الأطفال المنتظر للطفل القادم..

بعد وقت قليل أسمع صوت طبيب التخدير:

- (حمد الله ع السلامة.. ولد زي القمر..).

- لكنني لم أسمع بكاء الطفل.

– لا تنسي أنه ابن سبعة أشهر لذلك يعاني من بعض مشاكل التنفس.. وطبيب الأطفال يعتني به الآن.. ولابد أن يبقى فترة داخل الحضانة..

– مشاكل التنفس!! أحاول القيام.. يمنعني التخدير النصفي.. تمر بسرعة أمام عيني مشاهد متلاحقة لذكريات غاية في الألم.. حي السيدة زينب.. طفل أزرق الجسد يتنفس بصعوبة.. مستشفى (أبو الريش) للأطفال.. لا توجد حضانات خالية.. جهاز التنفس الصناعي.. ومشهد أخير لملاك صغير يدخل قبره قبل أن يلتئم جرح خروجه للدنيا..

أغمضت عيني على قلب من لهيب..

يكمل طبيب التخدير حواره:

– (هتسميه إيه؟)

لا افتح عيني ولا أجيب..

فجأة تنطلق صرخة محببة.. "واااااء".. افتح عيني بسرعة.. يبتسم طبيب التخدير:

- (هتسميه إيه بقى؟)

وبدموع حارة وقلب واجف لأم في غربة تقف مع صغيرها على حافة الحياة أجبته:

- يوسف.

❋ ❋ ❋

أبو الشافعي

حارس إحدى العمارات المجاورة لسكن المعلمات.. صعيدي قح تخطى الستين بعدة سنوات.. شخصية مركبة عجيبة جديرة بالتجسيد في فيلم سينمائي..

كان بسيارته القديمة يعتبر المتعهد الرسمي لتوصيل المعلمات إلى كل ما يلزمهن من (مشاوير).

طيب القلب لكنه يخفي طيبته خلف غلاف عصبيته الشديدة لدرجة أن المعلمات كن يخشينه ويتقين عصبيته التي يمكن أن تجعله يوقف سيارته في وسط الطريق ويقوم بإنزال معلمة قالت كلمة لا تعجبه!

كنت الوحيدة تقريبا التي يمكن أن ينفذ لها كلاما عكس إرادته لأنني على حد قوله أتصف بـ(رجولة) أهل الصعيد وأنني لا أشبه أهل الوجه البحري (الذين لا يحبهم).. وقد اقتنع بصدق فراسته التي يثق فيها عندما علم أن أصول والدتي ترجع لمحافظة أسيوط.

ومنذ ذلك الوقت منحني لقب (الكبيرة) بفتح الكاف على طريقة أهل الصعيد.

لم يكن أبو الشافعي يعرف القراءة أو الكتابة نهائيا، وقد استغربت ذلك كثيرا.. كيف تمكن من استخراج رخصة قيادة؟ كيف اجتاز اختبارات المرور؟ كيف يقرأ اللوحات الإرشادية على الطريق؟ ففسر لي ذلك بأنه قدم إلى الكويت قبل الغزو العراقي بسنوات طويلة وكانت هذه الأمور حينها أسهل كثيرا.. وهو يعرف اللوحات المرورية بأشكالها دون حاجة لقراءتها.

وعندما سألته عن كيفية معرفته للمتصل قبل سماع صوته في الهاتف، علمت أنه يسجل المتصلين على شكل أرقام أو رموز كالنجمة أو المربع أو القوس وهو يحفظ رمز كل متصل لذلك لا يسجل على هاتفه أكثر من 30 رقما تقريبا ويسرع بحذف رقم من لا يتصل به بشكل دائم ليستغل رمزه للأكثر اتصالا.

أثناء عودتي معه من المدرسة ذات يوم عرضت عليه أن أقوم بتعليمه القراءة والكتابة فرفض بشكل حاسم قائلا:

- (ما تحاوليش.. كان غيرك أشطر.. ياما غلبوا معايا زمان.. أصل أنا غبي قوي.. المدرسين في المدرسة كانوا مسميني الحيوان!!)

حاولت إقناعه بأن هذا ليس صحيحا، وأن طريقة قراءته للوحات المرورية واستخدامه للهاتف المحمول تعبر عن ذكاء فطري، كما أنه والد لطبيب وهذا دليل على وجود جينات الذكاء في العائلة، فهو ليس غبيا كما يقول.. وفي محاولة سريعة لإثبات كلامي أخرجت إحدى البطاقات التعليمية من حقيبتي وسألته عن الحرف المكتوب فيها؛ فأجاب بسرعة:

- حرف الألف.

- هايل.. انت عارف اهو.

- أيوة ماشي دة حرف الألف.. إيه علاقته بقى بكلمة (أحمد)؟!!

- ما تشغلش بالك.. دي قرابة من بعيد..

وتوقفت يائسة عن المحاولات عندما تأكدت تمامًا أن أبا الشافعي لن يتمكن طوال حياته من معرفة أي حرف آخر غير الألف!!

دق جرس هاتفه قبيل نزولي من السيارة ذات مرة فرد بعصبية على المتصلة:

- مش فاضي.. ورايا مشاوير

وأنهى المكالمة دون سلام، فسألته عن سر عصبيته مع المتصلة فأجاب:

- (عم تتفتف لي في الموالم!!)

وببعض الإيضاح فهمت أنها تجعله ينتظر طويلا بينما تقوم بجمع القطع النقدية الصغيرة جدًا من جيوبها وجيوب حقيبتها لتكمل له أجرة التوصيل.. حتى نفد صبره في إحدى المرات وقبض على حفنة من العملات المعدنية يحتفظ بها في درج سيارته و قدمها لها قائلا:

- خدي يا أبلة كملي.

في البداية كنت أبذل جهدًا كبيرًا في فهم مفرداته الغريبة، ثم ألفتها مع الوقت ولم أعد أتوقف عندها..

- وديني عند فاطمة صاحبتي.

- اللي جنب مطعم بكدونس؟

- أيوة.. اللي جنب ماكدونالدز.

- وديني السوق اللي باجيب منه أدوات المدرسة.

- عش الهنا؟

- أيوة.. طيور الجنة.

- جبت لابلونت زي بتاعك للدكتور شافعي ابني.

- مبروك.. جبته بكام اللابتوب؟ .. وهكذا.

ذات يوم أخبرت أبا الشافعي بأنني قد دفعت مبلغا لحارس عمارة تحت الإنشاء لحجز شقة لاقتراب مجيء أبنائي من مصر.. فغضب وعاتبني لأنني لم أستشره في هذا الأمر، وطلب مني اصطحابه لذلك الحارس الصعيدي لأنه بمجرد رؤيته سيعرف بفراسته المعهودة إن كان صادقًا أم لا.. وعندما أخذته إلى الحارس شعرت بارتياح للحفاوة المتبادلة بينهما.. وبلدينا.. وأجدع ناس.. فاطمأن قلبي أن ما دفعته في أمان.. وبمجرد ركوبنا السيارة فاجأني بقوله:

- نصاب وواكل ناسه واستعوضي ربنا في فلوسك..

وقد كان..

وفي إحدى ليالي الشتاء المطيرة شديدة البرودة طلبت مني زميلتي النزول معها لأحد المجمعات التجارية القريبة لشراء شيء تحتاجه غدا في المدرسة بشكل ضروري.

قمت بلفت نظرها أن الساعة تقترب من الثامنة وأن سكن المعلمات يغلق أبوابه في تمام التاسعة، فأجابتني بأن أبا الشافعي ينتظرها الآن أمام الباب وأنها ستشتري ما تريد بسرعة، ثم نعود قبل التاسعة.

وعندما ركبت السيارة أفزعني منظر أبي الشافعي وهو يلتحف عباءة صوفية سوداء ويلف رأسه ووجهه بشاله الصعيدي مما جعله أشبه بمقاتلي داعش..

المهم.. وصلنا إلى المجمع فطلبت من زميلتي أن تشتري ما تريد بسرعة بينما أدخل أنا قسمًا آخر للسؤال عن شيء أحتاجه ثم تخرج كل منا إلى السيارة دون انتظار الأخرى لكسب الوقت.

وبالفعل أنهيت ما أريد وخرجت أبحث عن السيارة حيث نزلنا فلم أجدها..

اتصلت به فأخبرني أنه يقف في إحدى الساحات خلف مجزر آلي بالقرب من المجمع.. طلبت منه العودة لباب المجمع فرفض مبررا ذلك بأنه رأى سيارة الشرطة أمام المجمع ويخشى مخالفته للوقوف في الممنوع..

بعد بحث طويل والمشي تحت المطر الخفيف لمسافة لا بأس بها عثرت على سائقي الداعشي يقف في ساحة مظلمة مخيفة.. كنت أستشيط غضبا منه، فدخلت السيارة بسرعة هربًا من المطر و سألته:

- ألم تجد أبعد من هذا المكان للوقوف؟! ولماذا لم تدخل موقف المجمع ما دمت تخشى سيارة الشرطة؟!! فأجاب:

- موقف المجمع بفلوس.

ازداد غضبي منه و انفجرت قائلة:

- (كنت ادخل الموقف وانا ادفع لك تذكرة الباركنج بدل الوقفة في الحتة المقطوعة دي).

أخرجت هاتفي واتصلت بزميلتي لأصف لها كيف تصل إلينا لأنه رفض بإصرار الخروج من الساحة خوفا من سيارة الشرطة.

وبينما كنت أعيد هاتفي إلى الحقيبة فوجئت بأضواء سيارة الشرطة تقترب منا بسرعة.. نزل الضابط الكويتي الشاب وتساءل بنظرة مرتابة عن سبب وقوفنا هنا.. انتظرت أن يجيب أبو الشافعي عن السؤال لكنني فوجئت به يتلعثم مرتجفًا كأنه قد انتهى للتو من دفن جثة قتيل..

أجبت الضابط بأننا لم نجد موقفًا خاليًا داخل المجمع، وأننا في انتظار زميلة ستأتي حالا، ثم ننصرف.

طلب منا الضابط بطاقات هويتنا وتوجه لي بالحديث:

- تعملين بوزارة التربية.

- نعم.. وأم لأبناء يقتربون منك طولا.

- ما صلة القرابة بينكما؟

احترت وأُسقط في يدي.. لو قلت الحقيقة بأنه يقوم بتوصيلنا في مقابل أجر فسأعرضه لمخالفة جسيمة وسحب السيارة وقد تصل للإبعاد من الكويت.. وفي الوقت نفسه لا أريد الكذب بادعاء صلة غير حقيقية.. فأجبت:

- هو جار لنا تطوع بتوصيلنا لسوء حالة الجو.

- ولماذا تجلسين في المقعد الأمامي؟

- لأنني أكبر سنا من زميلتي.

- اجلسا معا إذن في المقعد الخلفي.

- تربينا على احترام كبار السن.. ولا يصح أن نتعامل مع رجل في عمر والدنا أسدى لنا خدمة بقلة احترام فنجلس في المقعد الخلفي كأنه يعمل سائقًا خاصًا لنا.. هكذا نعامل الأكبر منا سنًا.

- صمت الضابط هو ينقل نظره بين وجهينا لحظة فكرت فيها فيما يمكن أن يكون قد دار في ذهنه الآن فابتسمت..

تعجب الضابط من هدوئي وابتسامتي قائلا:

- لماذا تضحكين؟ إن لم تظهر زميلتك خلال دقائق فأنت في مأزق كبير مع هذا الملثم.

- ولماذا ننتظر عودة زميلتي؟ هيا بنا الآن لمخفر الشرطة لأعرف هناك التهمة الموجهة إليّ.

وفي تلك اللحظة ظهرت زميلتي وهي تسرع باتجاهنا متعجبة من اختيار هذا المكان العجيب الذي وصلت إليه بصعوبة..

نظرت للضابط.. فمد يده لي بالبطاقة المدنية معتذرًا:

- آسف أستاذة.. تفضلي.

وعاد لسيارة الشرطة وانصرف.

حينها.. فك أبو الشافعي لثامه ورباط لسانه الصعيدي قائلا:

- (كنتي خايفة منه اياك.. انت ليه رديتي عليه؟ انا ما كنتش هاسكت له)..

نظرت إليه نظرة نارية وكظمت غيظي قائلة:

- (اطلع يالا.. السكن هيقفل).

- (أمرك يا كبيرة).

❋ ❋ ❋

رهف

دخلَت إلى الفصل بصحبة وكيلة المدرسة.. منقولة من إحدى المدارس الخاصة لتدني المستوى.. صامتة ثابتة النظرات كأنها دمية آلية..

جلست بهدوء في المقعد الذي أخذتها إليه.. لم يتطلب الأمر مني وقتا طويلا حتى أدركت أنها ليست فقط ضعيفة دراسيا بل (ميح) حرفيا.. بمعنى أنها كانت في الصف الرابع ولا تعرف نصف حروف الهجاء.. ولا تجيد شبك الأحرف لتكوين كلمة..

لم تكن تجيد حتى نقل جملة كاملة من السبورة.. حاولت التواصل مع أسرتها لمعرفة سبب حالتها فلم أجد استجابة نهائيا.. لم يحضر أحد من أسرتها رغم استدعائي لهم عدة مرات..

الطفلة تعاني إهمالا شديدًا في رعايتها حتى أنها لم تكن تحضر معها قلما معظم الأيام.. ولا تهتم بالكتابة.. فقط تجلس صامتة طوال الوقت كأنها خرساء.. تتغيب كثيرا عن الدوام المدرسي حتى في أيام

الاختبارات.. ولم تكن الأسرة تستجيب لاتصالاتي التليفونية المتوالية لمحاولة إحضار شهادة طبية لأتمكن من إعادة الاختبار للتلميذة.

لا أدري لم أحببت الفتاة!! رغم أن فتاة في هذه الحالة تعتبر عبئا وابتلاء بالنسبة لنا كمعلمات، ولا ينالنا من ورائها إلا زيادة الجهد وضغط المتابعة من قبل إدارة المدرسة والهبوط بنتيجة الفصل..

بحاستي التربوية وبغريزة الأمومة الفطرية أدركت ما ينقص الفتاة.. وكان أهم ما عملت عليه هو إعادة الثقة في النفس لهذه الصغيرة اليائسة..

لم أستسلم لصمتها العنيد.. كنت أطلب منها بإصرار أن تقف للإجابة.. وأنا متأكدة انها لا تعرف.. أوحي لها بالإجابة أو أذكر معظمها.. تقريبا أجيب أنا وهي فقط تردد ما قلته.. فأظهر السعادة الشديدة وأطلب من التلميذات التصفيق لها وأصفق لها معهن.. وأشجعها بعبارات لم تتعود عليها.. ها أنت تعرفين الإجابة.. لماذا لم ترفعي يدك؟

وأعهد إليها بالأسئلة البسيطة مثل قراءة كلمة سهلة من على السبورة.. أو إخباري بما تراه في صورة مثلا.. أو إعادة ما سمعته من زميلتها وهكذا.. وأنتهز فرصة أي استجابة أو أي حرف يخرج من فمها لأظهر ابتهاجًا شديدًا به.. وسرعان ما أرى أثره في ذوبان الثلج الذي يجمد ملامحها..

ولتشجيعها على النقل من على السبورة أقف بجوارها وأمسك دفترها فلا أظهر امتعاضًا لحالته المزرية، بل أفتح صفحة جديدة وأقوم بتسطيرها وتزيينها بشكل جميل وأرسم لها زهرة أو عصفورًا على طرفها.. ثم أكتب لها التاريخ والعنوان وأخبرها أنني سأعود في نهاية الحصة لأرى ما كتبت..

وعندما أعود لها أقيم احتفالا صغيرًا بأي تقدم مهما كان بسيطًا.. كنت أبتسم وأكتب لها عبارة تشجيعية وقلبًا محبًا باسمًا..

ودائمًا أربت على كتفها وأمسح على وجهها وأداعب شعرها وأتغزل في جماله ونعومته أثناء اللحظات البسيطة التي أقوم فيها بتصحيح دفترها.. ثم أطبع على خدها قبلة قبل أن أنصرف..

قضيت أيامًا طويلة أحاول كسر انطوائيتها بإشراكها في الأنشطة الصفية.. كأن أطلب منها مثلا توزيع الدفاتر أو أوراق العمل على زميلاتها.. أو جعلها قائدة المجموعة في عمل ما..

وفي أحد الأيام قمت بتكريمها على أخلاقها وأدبها وهدوئها وكم كانت سعادتها كبيرة عندما ألبستها تاجا باعتبارها ملكة الأخلاق في الفصل..

وكانت النتيجة مذهلة.. أكبر من كل توقعاتي.. تبدل حال الفتاة وتقدم مستواها الدراسي والاجتماعي بشكل كبير وبدأت تهتم بإحضار أدواتها.. وترتيب دفاترها.. ثم بدأت تقرأ وتكتب بنفسها..

وأخيرًا نجحت في نهاية العام على عكس ظن الجميع.. كما تغير سلوكها تغيرًا مدهشًا وأصبحت أكثر تفاعلا مع زميلاتها ومعلماتها..

وبالمصادفة البحتة أسندت لي إدارة المدرسة في العام التالي مهمة الصف الخامس الذي تدرس فيه (رهف) وعندما دخلت إلى الفصل في اليوم الأول من العام الدراسي فوجئت بها تترك مقعدها وتندفع إلى

حضني بلهفة لم أصدقها وبصعوبة فككت ذراعيها من حول خصري.. رغم أنني لم أرغب أبدًا في إنهاء هذا الحضن الغالي..

والآن أشعر بسعادة لا توصف وبفخر كبير وأنا أرى دفاترها المرتبة وواجباتها المنتظمة.. وتفاعلها النشط في الفصل.. حتى المشروعات والأنشطة اللاصفيّة قليلة الأهمية تؤديها على أكمل وجه.. بل على وجه أفضل من المطلوب.. وتقوم برسم اللوحات بنفسها وتبادر للاشتراك في المسابقات وتقوم بإعداد مشاهد تمثيلية من تصميمها.. بل تسند الأدوار لزميلاتها اللاتي يشتركن معها، كما تقوم بمساعدتي في تحريك شخصيات مسرح العرائس..

صحيح أنها لم تصبح متفوقة دراسيًا.. ولم تصل درجاتها إلى معدلات مرتفعة.. لكنها أصبحت تلميذة قادرة على استكمال دراستها بشكل طبيعي..

ابنتي لم تكن مريضة أو معاقة أو ناقصة عقل.. كانت فقط بحاجة لكلمة السر المفقودة.. إنها الثقة يا سادة.. و التي لم أفعل شيئًا سوى منحها إياها.. فأشرعت أجنحتها وحلقت..

انتهى العام الدراسي.. وجاء موعد مغادرة (رهف) للمرحلة الابتدائية.. فجاءتني في آخر أيام اختبارات الصف الخامس تحمل قلمًا كبيرًا ملونًا لتقبلني وتطلب مني أن أكتب لها ذكرى على قميصها الأبيض لتحتفظ به للذكرى فكتبت جملة واحدة من كلمتين:

(أحبك رهف..).

آن لها أن تستريح

أنا مدعوة الليلة لاحتفال كبير بمناسبة عظيمة.. عقيقة المولود الجديد لصديقتي الحنون الطيبة.

أخيرًا استجاب الله لدعائنا جميعا وأنجبت صديقتي مولودا ذكرًا.

أخيرا أصبح لبناتها الست سند وحماية.. اليوم فقط اطمأن قلب زميلتي على ميراث زوجها. فلن يتمكن أشقاؤه الخبثاء من اقتطاع ثلث ما يملك كما يخططون إذا قررت صديقتي التوقف عن الإنجاب والاكتفاء بست إناث رائعات.

زوجها أيضا سعيد جدًا.. فقد حظي أخيرًا بلقب مشرف (أبو محمد) وبالتدريج سينسى الجميع لقبه السابق (أبو ياسمين) كما كان يتمنى..

أخيرًا أصبح لها مولود ذكر.. يستطيع أن يرتدي نفس موديل البدلة التي يرتديها النجم العالمي (براد بيت)، و يملأ المكان حوله بأفخم

العطور الباريسية.. ويمارس جميع أنواع الرياضة مثل التنس أو السباحة مرتديًا زيها المعروف بلا نظرات استنكار.

أنا سعيدة جدًا.. فقد استجاب الله دعائي.. وزال عن خيال صديقتي شبح الطلاق أو الزواج الثاني الذي كثيرًا ما لوّح به زوجها حين تفاتحه في أمر إرهاقها الجسدي من توالي الحمل و الولادة.

بعد انتظار طويل آن لزميلتي ذات الستة والأربعين عامًا أن تستريح من خجلها حين تواجه عيون الناس الذين يلفت نظرهم التناقض بين بطنها المنتفخ والتجاعيد البادية حول عينيها وشعراتها البيضاء التي تظهر على استحياء من مقدمة حجابها.. يا الله.. ما أسعدني بنظرة الفرح والانتصار التي رأيتها في عيون زميلتي اليوم.. فقد أنجبت مولودا.. ذكرًا.

❋ ❋ ❋

شكرا كوماري

صرخة ألم قوية أطلقتها أثناء ترتيب غرفة أبنائي حين دست بقدمي العارية دون انتباه على حزام ابني الملقى على الأرض فاخترق مسمار قفله باطن قدمي بقوة.. تفقدت الجرح.. كان صغيرًا ولم تسل منه الدماء فلم أتوقف عند الأمر كثيرًا وأكملت ترتيب الغرفة ثم خرجت إلى السوق في ذلك اليوم الحار لأشتري متطلبات المنزل.

مر اليوم وعند حلول المساء كان ألم قدمي يزداد تدريجيًا حتى أنني كنت أجد صعوبة في الضغط عليها.

وعند الصباح فوجئت بباطن قدمي يتورم بشدة مع احمرار شديد وقد عجزت عن السير على قدمي.. وبصعوبة وصلت إلى المستوصف مستندة على ذراع زوجي ولا تكاد قدمي تلامس الأرض حتى أصرخ من الألم.. وصف الطبيب بعض المراهم الموضعية والمضادات الحيوية وقال إن الالتهاب شديد وأنه غالبا سيحتاج إلى جراحة لفتح القدم وتنظيفها إن لم يستجب الالتهاب اليوم للأدوية.

بدأت تناول الأدوية وفي اليوم التالي كانت قدمي مخيفة المنظر مع ارتفاع شديد في حرارة جسدي دون استجابة للمخفضات ورقدت تماما طريحة الفراش.. حاول زوجي إقناعي بالذهاب للمستشفى لكنني كنت خائفة من إجراء الجراحة فطلبت منه أن ننتظر حتى الصباح.. وفي المساء جاءت (كوماري).. الفتاة الهندية التي تأتي من حين لآخر لتساعدني في تنظيف المنزل.

عندما رأت قدمي تغير وجهها وظلت تدخل إلى غرفتي كل بضع دقائق لتنظر إلى قدمي المنتفخة ثم تخرج دون أن تنطق بحرف.. فسألتها إن كانت تريد أن تقول شيئا.. فأخبرتني في تردد أنها تريد أن تفعل شيئًا يقومون به في الهند في مثل هذه الحالات لكنها تخشى ألا ينجح.

وافقتها على ما تقول وطمأنتها أن وصفتها إن لم تنفع فلن تضر على أي حال.

أسرعت (كوماري) إلى المطبخ وأحضرت بصلة كبيرة وقامت بفرمها حتى أصبحت ناعمة تمامًا.. ثم دهنت قدمي بهذه العجينة ثم لفتها بالشاش النظيف وطلبت مني ألا أقوم بفكها حتى الصباح.

وعند شروق الشمس كانت المفاجأة.. تبدل الحال تمامًا.. لم يعد هناك أثر لأي شيء.. زال الاحمرار والتورم.. عادت درجة الحرارة لطبيعتها.. شفي الألم تمامًا.. ولم يعد هناك فرق بين قدمي المصابة وقدمي الأخرى إلا أثر الثقب الصغير الذي أحدثه المسمار..

لقد نجحت بصلة واحدة فيما فشل فيه الطب و الدواء..

شكرا (كوماري).. شكر أيتها الجميلة البسيطة الطيبة القادمة من بلاد العجائب..

❋ ❋ ❋

(انت جاية اشتغلي إيه؟)

من أحد منشورات الدعاية لتعليم قيادة السيارات اخترته.. لا أدري لِمَ ذكرتني صورته بصورة والدي الحبيب.. خاصة عندما وقعت عيني على خانة تاريخ الميلاد في بياناته فوجدت أنه من مواليد نفس العام الذي ولد فيه أبي.

أمسكت هاتفي وطلبت رقمه وطلبت منه أن نبدأ أولى ساعات التدريب على القيادة، فرحب بي بطريقة ودودة شجعتني على الاسترسال في الحديث معه فأخبرته أن لتاريخ ميلاده دورًا في اختياري له، فأخبرني أثناء الحوار أن له ابنة في مثل عمري، وأنه كان من أبطال حرب أكتوبر المجيدة تماما مثل والدي.

وفي اليوم المحدد جاءني راكبًا سيارة التعليم ذات المقودين لكنها كانت قديمةً ومتهالكة.. ترددت بعض الشيء من منظر السيارة لكنني أقنعت نفسي بأن الراحة مع المدرب أهم كثيرًا من حالة السيارة.

لكن سرعان ما تبددت هذه الراحة مع بداية التدريب الفعلي، فلم يكن الود الذي يغلف طريقة "أبو سناء" في الحوار إلا أسلوباً في (جر الرجل) يخفي به عصبية شديدة في التعامل وهو الأمر الذي لا يناسبني بالمرة في تعلم أي مهارة.

كان أثناء التدريب يقوم بنفسه بقيادة السيارة ويوهمني أنني من يقود، ولم يكن ذلك يخفى عليّ بالطبع وقد وضحت له فهمي لذلك بطريقتي أكثر من مرة.. لدرجة أن جرس هاتفي قد رن أثناء قيادتي للسيارة فتركت عجلة القيادة ومددت يدي لأحضر حقيبتي من المقعد الخلفي و قمت بالرد على الهاتف دون أن ينتبه أبو سناء أو يبدي اعتراضا على ذلك!!

كان يعلمني القيادة بطريقة روتينية تقليدية كأن تعليماته قانون مقدس فيصرّ على أن أمسك عجلة القيادة بطريقة (عشرة وعشرة) بمعنى أن أضع يديّ في نفس مواضع عقارب الساعة عندما تشير إلى العاشرة وعشر دقائق!!

ولا أدري لِمَ لم تناسبني هذه الطريقة نهائياً وكنت دائما أقود السيارة بيد واحدة وهو ما يجعله شديد العصبية فينفجر غاضبًا:

- (طول ما إيدك دي على رجلك عمرك ما هتتعلمي السواقة).

كنت أطيعه وأمسك المقود بطريقته لثوانٍ معدودة تترك بعدها إحدى يديّ المقود تلقائيًا فيعود أبو سناء للصراخ وهكذا..

كان يصرّ أيضا على أن أحتفظ بظهر المقعد مستقيمًا بشكل عموديّ كأننا في طائرة تستعد للإقلاع وهو أمر غير مريح بالنسبة لي وكان يغضب بشدة إذا أرخيته إلى الخلف قليلا ويتوعدني باستحالة تعلمي للقيادة طالما تمسكت بهذه الأخطاء..

حان موعد اختبار القيادة بعد عشر ساعات مرهقة للأعصاب لم أتعلم فيها إلا بعض المبادئ النظرية والأسس البسيطة..

طلب مني شرطي الاختبار العودة بالسيارة إلى الخلف..

الخلف!!! (ماخدناهاش دي في الكيلاس)..

حاولت العودة فاقتحمت الرصيف وكدت أصيب الشرطي الذي أمرني بالتوقف ومغادرة السيارة فورًا مع ختم صارم بالرسوب.

وعند الاختبار الثاني كنت قد تعلمت جيدا كيفية العودة إلى الخلف ففاجأني الضابط بأمرٍ غريب.. فقد طلب مني أن أستعد لأنه سيعود بعد دقائق ليخرج معي إلى الشارع ليتأكد من مهارتي في القيادة عملياً!!

عندما أخبرت أبا سناء بذلك هاتفيا تقمص دور المدرب الأجنبي وأصدر تعليماته القاطعة لي بضرورة البطء الشديييد في القيادة، وشدد على ضرورة ألا تتجاوز سرعتي ٢٠ كيلومترا في الساعة وأن ذلك هو الضمان الوحيد لنجاحي!!

وكأية تلميذة نجيبة نفذت حرفيًا كلام مدربي المتمكن فحصلت على ختم الرسوب مقرونًا بملاحظة (البطء الشديد في القيادة) قبل أن أعود لساحة الاختبار.

وفي يوم الاختبار الثالث ذهبت لساحة الاختبار واثقة من فوزي هذه المرة بالرخصة فقد تمكنت عن طريق إحدى زميلاتي من الحصول

على توصية من ضابط كبير في المرور.. وبالفعل قدم لي المسؤول رخصة القيادة مع نصيحة بعدم قيادة السيارة إلا بعد إتقان التدريب.

خرجت من المكتب سعيدة أبشر مدربي المشتعل دائما وقدمت له شهادة نجاحي فهنأني قائلاً:

- (انت مش نجحتِ وأخدتِ الرخصة اهو.. بس عليا الطلاق بالتلاتة عمرك ما هتسوقي ولا تركبي عربية في حياتك!!)

أخذت نصيحة مدربي الخبير بعين الاعتبار ووضعت رخصة القيادة في مكانها في حافظة البطاقات وقد عزمت على عدم إخراجها أبدًا..

❋ ❋ ❋

(احنا أسفين يا أبو سناء)

مر عامان على استخراجي رخصة القيادة دون أن تخرج من مخبئها إلى النور مرة واحدة.. حتى جاء يوم أعاتب فيه (أبو مينا) السائق الحكيم الذي يوصلني للمدرسة، والذي كان يتمتع بخبرات حياتية وقدرات ذهنية رائعة لا تتناسب مع عمله البسيط في التوصيل بالسيارة.

عاتبته على تأخره صباحا مما يجعلني متوترة أثناء الطريق المزدحم حتى أصل إلى المدرسة قبل دقائق قليلة من الموعد المحدد. فسألني مستفسرا:

- (انت ليه مش بتطلعي رخصة وتجيبي لك عربية أحسن لك).

- (أنا معايا رخصة بالفعل لكن ما بعرفش أسوق، وما نجحتش في إني أتعلم).

- (إزاي الكلام دة؟ طيب نشوف كدة).

وفجأة توقف على جانب الطريق، ونزل من السيارة وفتح بابي طالبًا مني النزول لقيادة السيارة.

- (انزلي يا أم أحمد.. انت اللي هتوصلينا المدرسة).

أجبته ضاحكة:

- (نعم!! انت بتهزر يا أبو مينا! بقول لك ما باعرفش اسوق.. ما باعرفش بجد).

- (والله ما حد موصلنا المدرسة غيرك).

- (شوف بقى إذا كنت انت مستغني عن حياتك أو عن عربيتك انت حر.. لكن أنا عندي عيال عايزة أربيهم).

- (أقسم بالله ما أنا متحرك وأنت اللي هتوصلينا المدرسة).

وأمام إصراره الشديد اضطررت للاستسلام وجلست على مقعد القيادة..

ودون وعي أرخيت المقعد قليلا إلى الوراء وبدأت قيادة السيارة - لاإراديا- بيد واحدة..

انتبهت من ذهولي على هتاف أبي مينا مشجعا:

- إيه العظمة دي!! سواقة هوانم صحيح.

نظرت إليه لأتأكد من جديته.. فقد كان إرخاء المقعد للخلف والقيادة بيد واحدة جريمتين لا تغتفران في نظر مدربي أبي سناء.

- (انت بتتكلم جد!! يعني الطريقة اللي باسوق بيها دي مش غلط؟!!).

- (غلط مين؟ دي سواقة معلمين.. دة انت أستاذة..).

وصلت إلى المدرسة بهدوء وسلام.

وفي طريق العودة كرر أبو مينا ما فعله وأصر على أن أقود السيارة حتى المنزل.

- (من هنا ورايح الكرسي دة بتاعك.. مش هقعد عليه طول ما انت بتركبي معايا..).

واستمر في تدريبه المشجع إلى أن ارتكبت يومًا خطأً كبيرًا في القيادة كاد يودي بحياته وحياتي معه.. فأصبت برعب شديد وتوقفت على جانب الطريق وهممت بالنزول..

- (انت رايحة فين؟)

- (رايحة فين إيه؟ انت ما شفتش اللي حصل؟! أنا وانت كنا هنموت في لحظة..).

- (شفت اللي حصل.. وعارف انك غلطتي وغلطة كبيرة كمان بس كلنا بنغلط وانت برضو اللي هتسوقي).

- (اعمل معروف يا ابو مينا.. أنا قلبي بيدق وجسمي بيتنفض ومش قادرة اتلم على أعصابي.. سوق انت دلوقتي وأنا هابقى أسوق بعدين).

- (مفيش بعدين.. لو ما ركبتيش العربية ووصلتينا بيها البيت حالا مش هتسوقي أبدا في حياتك.. الخضة دي ممكن تسبب لك عقدة كبيرة من السواقة وحلها الوحيد إنك تتجاوزيها في لحظتها.. لازم تهدي وتركبي العربية وإلا كل اللي عملته معاكي هيضيع).

وفعلا أصرّ على رأيه وركبت السيارة وظل يشجعني طوال الطريق حتى وصلنا إلى المنزل في أمان الله.

و الآن.. بعد مرور سنوات طويلة على هذا الأمر أتذكر (أبو مينا) وأنا أغني مع مذياع السيارة وأقلب موجاته في هدوء وثقة.. مرخية مقعدي وممسكة بمشروبي الصباحي لأنني أقود السيارة كما تعودت بيد واحدة.. وأبتسم..

لكن حين أرتكب حماقة أحيانا تتسبب في تحطيم مقدمة سيارتي أو كسر مصابيحها أتذكر فورًا شخصًا آخر فأهتف بقلبي:

(احنا آسفين يا أبو سناء).

❋ ❋ ❋

(صباح الخير يا بلدينا)

كنت ضائعة في الطريق أبحث عن مبنى الجوازات حين خطر في بالي أن أتصل بسائق (تاكسي) كان يوصلني لمدرستي منذ عدة سنوات.. شعرت بانتصار حين وجدت أنني مازلت أحتفظ برقم هاتفه رغم أنني لم أتصل به منذ وقت طويل..

اتصلت به فرد عليّ بلهجته الصعيدية بصوت يملؤه النوم. .

- صباح الخير يا ممدوح.. اوصف لي مبنى الجوازات الجديد بسرعة.

- مين معايا؟

- (بعصبية) أنا أم أحمد

- أم أحمد مين؟

- أم أحمد نهلة يا أخي.. اخلص.. أنا سايقة و تايهة في الطريق.

- انت فين دلوقتي؟

- على شمالي حديقة مشرف.

- اطلعي ع الدائري السادس.

- ما اعرفش الدائري السادس.

- يا حلاوتك.. ما تعرفيش الدائري السادس!! كملي الطريق يا أبلة وخدي يمين هتلاقي إشارة.

- كملت ومفيش إشارة.

- (غاضبًا) مفيش إشارة إزاي؟

- أيوة أيوة شفت الإشارة.. أعمل إيه؟

- يخرب بيت اللي علمكم السواقة.. خدي الإشارة يمين.. وخدي يمين قبل الجسر.

استغربت جدًا من أسلوبه.. كيف يتحدث معي هكذا!! أنا أكبره بعشر سنوات على الأقل.. ودائما كان يتعامل معي بمنتهى الاحترام.. ولم يصدر منه أبدا أي لفظ سيئ هل جُن هذا الرجل!!

- هو فين الجسر دة ؟ آه آه شفته. وبعدين؟

- شفتيه.. يا ألف بركة.. يا ألف نهار ابيض.. خدي أول دوار وبعد تاني دوار لفي وارجعي.. والله ما كان لكم ركوب عربيات.

- بذلت جهدًا كبيرًا لكظم غيظي من طريقته الغريبة في التحدث معي.. لرغبتي في تجاوز الموقف) على شمالي دلوقتي الجامعة الاسترالية.. هاااا؟

- اللي مرسوم عليها الفار؟ (يقصد الكانجرو).

- أيوة هي اللي عليها الفار. انجز..

خدي فوق تحت وارجعي هتلاقي الجوازات على يمينك..

فعلت ما قال وجدت فعلا مبنى الجوازات.. فشعرت بارتياح وشكرته:

- أنا متشكرة قوي يا ممدوح..

- الله يحرق ممدوح وسنين ممدوح اللي قل راحتي ع الصبح.

- يعني انت مش ممدوح!! أومال انت مين؟

- أنا واحد شاري خط التليفون دة جديد.. سيبيني أكمل نومي بقى ربنا يوجع قلوبكم.

- !!!!!!!!!

(على فكرة) بعد أن أنهيت إجراءات تجديد إقامتي استحيت ان أعيد الاتصال به حتى يصف لي طريق العودة إلى مدرستي..

❋ ❋ ❋

الملاك

جاءتني باكية:

- نهلة.. أنا خلاص.. قررت أسيب الكويت وأرجع مصر نهائي..

- ليه يا سمر؟ خير؟ انت لسة يا حبيبتي ما كملتيش سنتين، وما اتقدمتيش فيهم خطوة.. هترجي ليه؟

استرخت أمامي على المقعد وبدأت تحكي بأسى. .

هي أم لطفلين.. يجلس زوجها بلا عمل منذ اليوم الأول لدخوله الكويت.. فقد استقدمته كالتحاق بعائل ولم يوفق في الحصول على فرصة عمل..

راتبها لا يكفي متطلبات الحياة من إيجار للشقة ونفقات المعيشة فتضطر للعمل في الفترة المسائية في أحد المعاهد التعليمية حتى تكمل النقص في الدخل وتفي بمتطلبات الأطفال.

تفعل ذلك راضية غير متذمرة تكتفي بحياتها مع زوجها وطفليها بهدوء بعيدًا عن منزل عائلته في مصر المزدحم بالبشر والمشكلات.. والذي ذاقت فيه الأمرين وهو ما دفعها دفعا للبحث عن السفر هروبًا منه.

استمرت في كفاحها في الكويت راضية قانعة حتى جاء يوم أخبرها فيه زوجها أن شقيقه في مصر قد حكم عليه بالسجن عقابًا على جريمة ارتكبها وأن عليها أن ترسل راتبًا شهريًا تعول به أسرة شقيقه حيث إن زوجته لا تعمل!!

استغربت جدًا ما طلبه.. فهو يعلم جيدًا (البير وغطاه) فمن أين لها بالفائض الذي ترسله لأبناء شقيقه السجين وهي التي تعمل صباحًا ومساءً حتى تفي بالكاد نفقات أسرتها.. ولماذا يطالبها هي الأنثى بإرسال راتب لأبناء شقيقه وهم الذين يتفاخرون دائما بأن عائلتهم مليئة بالذكور ولا ينجبون إلا الذكور!!!

ولماذا لا تعمل زوجة شقيقه وتعول أبناءها كما تفعل هي!!

ذكرته بأنها قد قامت بأكثر مما هو مطلوب منها للمساعدة في قضية شقيقه التي ورط فيها نفسه غير مظلوم.. وأنها قد فقدت كل مدخراتها السابقة وحليها التي ورثتها عن أمها لتدفع أجر المحامي لينقذه من السجن دون جدوى..

احتد النقاش بينهما دون جدوى فاضطرت لإنهائه عند حلول موعد عملها المسائي.. ثم عادت إلى المنزل ليلا لتجده قد حزم أمتعته واشترى بمصروف المنزل تذكرة العودة وأخبرها أنه سيسافر إلى مصر فجرًا ليعود إلى عمله حتى ينفق على أبناء أخيه السجين وعلى زياراته في محبسه..

وبالفعل سافر الزوج وتركها في الغربة مع عصفورين زغب الحواصل لم يتجاوز أكبرهما العاشرة من عمره.. ولم يكمل أصغرهما عامه الثالث..

حاولت الصمود لكن المعاناة كانت أكبر من احتمالها.. كان عليها أن تستيقظ في الخامسة صباحًا لتذهب بالصغير إلى المربية.. تحمله على كتفها وتذهب به سيرًا على الأقدام في جو الكويت غير المستقر دائما..

وتهرب بسرعة من صراخه وتشبثه بها، ثم تعود باكية القلب لتصطحب الآخر إلى مدرسته في سيارة أجرة.. وترجع ظهرا مرهقة لتجمع صغيريها كل من موقعه فتعد لهما الغداء وتطعمهما ثم تذهب إلى عملها المسائي وتظل طوال الوقت تتمتم بالدعاء لله أن يحفظ صغيريها المتروكين في المنزل في رعاية الله وحده..

ثم تعود ليلا وهي تخشى أن تفتح الباب ذات مرة فتجد مكروها قد أصابهما لا قدر الله.. فقررت العودة إلى مصر إنهاءً لهذه الحياة المرهقة وخوفًا على هذين الصغيرين من البقاء في المنزل وحدهما.

استمعت إليها صامتة.. لم أجد ما أقوله لها.. هدأتها قليلا وطلبت منها أن نخرج لتناول القهوة في مكان هادئ ونحاول أن نفكر في حل لهذه المشكلة..

ركبنا السيارة مع السائق الحكيم (أبو مينا).. الذي لاحظ حزنها وشرودها فسألها:

- (مالك يا أبلة سمر)؟

لم تجب سمر عن سؤاله.. فتطوعت أنا بالإجابة:

- (سمر متضايقة شوية وعاوزة ترجع مصر نهائي).

فتوجه إليها مرة أخرى بالسؤال:

- (انت بنيتي البيت اللي كان نفسك تبنيه؟)

أجابته:

- (ولا طوبة).

- (طيب اشتريتي شقة؟)

- أبدًا..

- (يعني هترجعي تاني لبيت العيلة اللي كنت دايما تشتكي منه؟)

- (الأمر لله بقى.. مضطرة أرجع له)..

صمت أبو مينا قليلا ثم عاد للحديث قائلا:

- (شوفي يا أبلة سمر.. أنا هحكيلك حكاية بنحكيها في تراثنا المسيحي اسمعيها مني وبعد كدة فكري..

كان فيه زمان راجل فقير وعجوز وصاحب عيال كتير وحالته صعبة على الآخر.. كل يوم يدعي ربنا يخلصه من الهموم اللي هو فيها، ويفكها عليه، قعد سنين وسنين يدعي ويتوسل لغاية ما في يوم من الأيام نزل له ملاك من السما.. قال له :

- أنا ربنا بعتني ليك عشان أخلصك من همومك وأحقق لك ثلاث أمنيات.. أي ثلاث أمنيات تطلبها هاحققهالك فورًا.. بس خلي بالك هم ثلاث أمنيات بس وبعدها هامشي ومش هارجع لك تاني أبدًا.

الرجل فرح جدًا جدًا.. وجري يبشر زوجته وأولاده بالفرج اللي جالهم.. زوجته العجوز المريضة سمعت الحكاية وشافت الملاك قعدت تتحايل عليه يمنحها حق اختيار أول أمنية.. الرجل وافق وقال إيه المشكلة لسة هيبقى عندي أمنيتين أختارهم أنا.. فقال لها يالا اطلبي انتِ أول أمنية.. الست طلبت من الملاك أنه يحولها لشابة صغيرة وجميلة.. الملاك فورًا حقق الأمنية واتحولت الأم لشابة في غاية الجمال..

أول ما شافت نفسها في المراية ماصدقتش نفسها من الفرحة، وقالت لزوجها أخيرًا هاخلص من حياتي معاك.. أنا عشت معاك في فقر

ونكد سنين وآن الأوان إني أفرح بشبابي وأشوف حياتي.. أنا هاخرج حالا وهاتجوز شاب يناسبني ومش هارجع لك أبدًا..

الرجل اتصدم من كلام مراته.. وقبل ما تخطي عتبة الباب قال للملاك:

- بسرعة اسخطها قردة..

الملاك فورًا نفذ المهمة واتقلبت الست قردة في منتهى البشاعة.. فضلت تصرخ وتهاجم فيه وتخربش في العيال والعيال يصرخوا.. أمي أمي.. ويتحايلوا عليه.. بالله عليك يا أبونا رجع لنا أمنا تاني.. احنا عايزين أمنا ترجع لنا ومش عايزين حاجة.. فاستجاب لهم الرجل وطلب من الملاك يرجع لهم أمهم تاني فنفذ الملاك الأمر وكانت دي الأمنية التالتة واختفى الملاك للأبد ورجعت حياة الرجل وأسرته مش زي الأول بل أسوأ من الأول لأن زاد عليها الكراهية اللي بقت بينهم..

يا أبلة سمر.. الفرصة ما بتجيش غير مرة واحدة.. وانتِ حياتك كانت صعبة وكنتِ حسب كلامك عايشة في جحيم.. دعيتِ ربنا

واستجاب لك وبعت لك فرصة الخلاص.. اللي انتِ هتضيعيها دلوقتي وهترجع حياتك أسوأ من الأول لأنها مليانة لوم وعتاب وكراهية..

يا أبلة سمر.. الملاك لسة عندك ما طارش.. الحقي الأمنية الأخيرة لأنه لو راح مش هيرجع تاني أبدًا..).

وصلنا لباب المقهى ونزلت سمر معي من السيارة وقد قررت عدم السماح لملاكها بالمغادرة قبل أن تحقق أمنيتها الأخيرة..